# الفصل الرابع:

# فينيقيون أم كنعانيون؟!

obeikandl.com

أحمد الدبش

إن المسألة الأكثر إرباكاً في كل بحث يتناول التاريخ القديم لإحدى مناطق سوريا الطبيعية هي محاولة التوصل لمعرفة أصل الجماعات السكانية ما قبل العربية التي أقامت دولاً حضارية هنا وهناك، وخاصة بالنسبة لحقب زمنية موغلة في القدم.

**تسمية كنعانيون؟!:**

أطلق مؤرخو الشرق الأدنى القديم، على العناصر التي قطنت فلسطين ولبنان وسورية، منذ أقدم العصور تسمية كنعان وكنعانيين، كتسمية تقليدية عامة لمنطقة فلسطين والساحل الفينيقي، دون تحديد دقيق. وقد افترض حراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب أن فلسطين هي أرض كنعان، انبثاقاً من إيمانهم بصحة جغرافية العهد القديم. وارتكبوا في تفسير كلمة كنعان أبشع أنواع التزوير، والتلفيق. فالتسمية " كنعان " جاءت من التوراة، ثم تعارف العلماء والباحثون على تحديد مضمونها. إنه اصطلاح اتفق عليه المستشرقون الاستعماريون والصهاينة من أجل أن يحولوا أرض سورية كلها، من الفرات إلى النيل، إلى ما تدعوه التوراة بأرض كنعان التي وعد بها الربُّ إبراهيمَ، فصاروا اليوم يدعونها بأرض الميعاد، لتكون المسرح الجغرافي الاستعماري الصهيوني الحديث.

ويذكر مؤرخونا من أصحاب وحراس الفكر الآسن، أن قسماً كبيراً من لبنان وسورية سمي قديماً ببلاد كنعان نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح، وهو مشتق في العبرية من (كنع) بمعنى ركع وهو لفظ ميت، وفي الكلدانية بمعنى خزي، وفي العربية بمعنى خضع. وفي ذلك يقول القديس " أوجستين ": " إن السبب في تسمية أرض الميعاد بأرض كنعان يؤخذ من معنى هذه الكلمة، فمعناها: المنخفض " [١].

وفي ذلك يقول " فيليب حتي " نقلاً عن " ألبرايت "، و " سميث "، وغيرهم: " ولسنا ندري تماماً أصل الكلمة، فبعضهم يشير إلى أن كلمة " كنعان " تعني الأرض المنخفضة، لاختلافها عن مرتفعات لبنان. ولكن أحدث الآراء تشير إلى أن أصل الكلمة غير سامي، والاشتقاق الجديد يجعله حوري الأصل (KNAGGI) بمعنى الصباغ الأرجواني، وهذا أعطى الصيغة الأكادية في نوزي (كناخي - KINAKHI)، وفي مسمارية تل العمارنة (كيناخي - KINAKHKHI)، وفي الفينيقية (كنع - KENA)، وفي العبرية كنعان أي بلاد الأرجوان. كذلك يشير اسم فينيقية المشتق من اليونانية (PHOINI) أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها - صناعة الأرجوان - وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم، فإن كلمة فينيقي أصبحت نحو ١٢٠٠ ق. م مرادفة لكنعان " [٢]

ويرى " د. مورتغات " أن أناساً ساميين غربيين قد قطنوا سورية على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة

حمورابي.. أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على الساميين في سورية اسم الكنعانيين، ولغتهم يجب أن تكون اللغة نفسها التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك، أي من الكنعانيين، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية [٣].

وفي تفسيره لمعنى اسم كنعان يذكر " ميخائيل نسطور " في دراسته «كنعان، فينيقيا، أرجوان» قائلاً: طالما ظل اسم (كنعان) يُعدّ اسماً سامياً. وفيما بعد ما لبث هذا الاسم أن ظهر في نصوص مسمارية عُثر عليها في تل العمارنة وبوغازكوي على أشكال >كيناخني/ كي - نا - اخ - ني<، >كيناخنا/ كي - نا - اخ - ناد<، >كيناخي/ كي - نا - اخ - خي<، >كيناخّي/ كي - نا - ا - اخ - خي<، >كيناخي/ كي - نا - خي<، أي مع ذيل <ني/نا> وبدونه على حد سواء ". ويذهب " يوليوس ليفي " إلى تفسير (كنعان) بوصفها كلمة حورية ملحقة بالذيلين الحوريين > - خ(خ)ي< و> - ناد. واكتشف أيضاً أن كلمة <كيناخّو> كانت تعني صباغاً أرجوانياً أحمر في النصوص المكتوبة بالأكادية في مدينة نوزو ذات الأكثرية الحورية. وقد فهم " إي آ. شبيزر " هذا المصطلح على أنه صفة مشتقة من (كنعان) التسمية المحلية الأصلية لفينيقيا الشهيرة بإنتاج الأرجوان. أما " وليم ألبرايت " فقد عَدّ، بالمقابل، كلمة <كيناخّي> صفة حورية أصلية بمعنى أرجواني تحديداً، مما جعل من (كنعان) تسمية حورية لفينيقيا بوصفها بلد الصباغ الأرجواني [٤].

ويرى " روجرز " لقد ورد ذكر كنعان في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم KNAKHNI ، وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أما القسم الشمالي فكان يسمى " أمورو " أو " عمورو "، وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن [٥].

وينتقد الباحث الجاد " فرج الله صالح ديب " تفسير كلمة " كناخي " في رسائل تل العمارنة المصرية، على أنها تعني " كنعان " قائلاً: نفهم أن تتبدل الخاء إلى كاف والنون إلى ميم، أما تبديل الخاء والجيم كما تلفظ (باللهجة المصرية والبدوية والسريانية) إلى عين، فإنها عصية على الهضم في اللهجات[٦].

واستناداً إلى العديد من الحقائق استنتج " سباتينو موسكاتي " أن هذه التسمية لا تبعث على الرضا من نواح عدة، فإنه يبدو من تمحيص المصادر أن لفظي كنعان والكنعانيين كانا يعنيان قبل كل شيء فينيقيا والفينيقيين، ولم يستعملا إلا في عصر متأخر للدلالة على مدلولين أوسع نطاقاً؛ أحدهما جغرافي، والآخر جنسي. هذا إلى أن حدود تلك التسمية ليست محددة تحديداً يدعو إلى الرضا، فهذه الحدود واضحة بعد مجيء القبائل الآرامية، ولكن هذا الحدث متأخر نسبياً، وكان لفظا كنعان والكنعانيين يطلقان قبل ذلك على المنطقة السورية - الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها. ثم إن الكنعانية من حيث هي مجموعة لغوية ليست وحدة حقيقية، فلفظ " كنعاني " يطلق كما لاحظ الأستاذ " فريدرش " عن حق،

على أي عنصر لغوي سوري - فلسطيني لا ينتمي إلى الآرامية[٧].

ويذكر العلامة " طمسن " أنَّ تعبير (كنعاني) أساء استعماله معظم العاملين في الأركيولوجيا ودراسات الشرق الأدنى القديم اليوم.. تعبير (كنعاني) كما هو مستعمل في الأركيولوجيا التوراتية، اسم قبلي تعود أصوله إلى مرويات العهد القديم خلال مرحلة ما بعد النفي، الهادفة لمحاربة عبادة بعل. فهو القطب المضاد لإسرائيل، وفي العصر الحديدي الأول، لا يبدو مناسباً أبداً. إطلاق (كنعاني) على ثقافة الدولة المدينة في السهول والوديان الرئيسية مثير للاعتراض. هذا لأنه ليس تعسفياً في تحديداته فحسب، بل لأنه يفترض وحدة إثنية - سياسية ومادية هي ببساطة لا تتوافق مع أي حقيقة نعرفها، حتى خلال العصر البرونزي. وتعبير (كنعاني) ليس اسماً جغرافياً فحسب، ولا يعرف كاسم قبلي في هذا التاريخ المبكر، بل إن إطلاقه على الأراضي المنخفضة في فلسطين كمنطقة يسود فيها نظام الدولة المدينة في العصر الحديدي الأول، مثير للسخرية [٨].

ويعود " طمسن " ليؤكد: " إن كلمة (كنعاني) تقوم بوظيفتها مصطلحاً ازدائياً بالإشارة ليس إلى الإثنية أو حتى إلى شعب منطقة ما، بل إلى الطبقة التجارية في المجتمع، على نحو يتماشى كثيراً مع التمييزات الاجتماعية كما هو موجود ضمناً في الإشارة العربية إلى البدو والفلاحين والمدنيين. في الورودات الكثيرة للاسم (كنعاني) في التراثات الكتابية، فإن المشار إليه هم السكان الأصليون الأسطوريون لـ (أرض كنعان)، مع الإشارة إلى فلسطين. المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا

المدلول معرفاً لذاته ذي دلالة إثنية هي في نص فينيقي متأخر، من دون الإشارة إلى فلسطين إطلاقاً " [٩].

بقي أن نشير هنا إلى أن المكتشفات الآثارية من أقصى شمال سورية الطبيعية إلى أقصى جنوبها لم تشر إلى وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لـ " كنعان "، وأما ما يزعمه البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة على ما دعي بتمثال إدريمي في الألأخ فهذا زعم باطل، إذ أن الكلمة هي " قنياني " وتعني مقتيناتي، ملكي، وليست " كنعان " [١٠].

ويكفي أن نذكر أن اليونانيين تحدثوا عن الفينيقيين، ولم يذكروا الكنعانيين، بدءاً من " هوميروس " إلى " هيرودوتس ". ومن المسائل الواجب أخذها بعين الاعتبار أن سكان الساحل السوري لم يطلقوا على أنفسهم كنعانيين، بل كانوا يعرفون أنفسهم بأهل صيدا، وأهل صور، وأهل جبيل.. إلخ.

**في معاني فينيقيا :**

يناقش " ميخائيل نسطور " اسم فينيقيا في دراسته الموسومة - كنعان، فينيقيا، أرجوان - بقوله: " من المؤكد أن الأكثر إقناعاً بين سائر التفسيرات الإغريقية لكلمتي: فينيقي، وفينيقيا هو اشتقاقهما من المفردة (فوينيكس) بمعنى أرجواني، الدال على خاصية التجارة الفينيقية. وبالنسبة إلى إد مَيَر، أبرز المدافعين عن هذه النظرية، فإن الكلمة كانت مفردة يونانية خالصة. كما تبنى شبيرز تفسير العبارة الإغريقية بوصفها تطوراً أوروبياً على نحو كامل. والمقصود بذلك القول بأن المفردة

(فوينيكس) نشأت اسماً وصفياً عاماً، ربما من كلمة (فوينوس) التي تعنى: أحمر. وقد تم الاعتراف بأن (فوينيكس) مشتق، عبر (فوينوس) <فون - إيو - س> التي تعنى: قاتل، دموي، أحمر كالدم، المشتقة من (فونوس) التي تعنى: جريمة قتل، والذي جرت استعادة جذور الهندو أوروبية، على أساس سلسلة طويلة من الاشتقاقات، على شكل <غوُ هوُ نو - س>. ولكن صوت (غُ) البدائي الأول ظل في الإغريقية الميقينية يُلفظ قافاً (ق). الآن، تظهر الصفة (فينيقي) التي تنعت بعض السلع المستوردة، في نصوص محددة على شكل: فونيكا (= فوينيكا) التي كانت، مثلها مثل صياغة: فونيكيا، تعنى مصبوغ باللون الأحمر، مدهون باللون القرمزي مما دفع فنترس وتشادويك إلى القول، وهما على صواب، بأن فونيكا ربما كانت كلمة مقتبسة، بدلاً من أن تكون مشتقة من فونيوس التي تعنى أحمر كالدم، والمأخوذة من المفردة (جُ هُنوس) غونجوس. ومع انتفاء إمكانية عَدُّ (فوينيكس) كلمة إغريقية، بات من الضروري أن نبحث عن أصلها، لدى تلك الأقوام التي اشتهرت بالأصبغة القرمزية والأرجوانية التي كان الإغريقيون يطلقون عليها اسم فُوينيكس. الآن، إن المفردة العبرية <فُوّا>، أو العربية (فُوّة) اسم يطلق على الجذور الصبغية التي تنبت في كل من سورية وفلسطين ومصر، وهي أكثر المصادر شيوعاً للصباغ الأحمر ولتقليد اللون الأرجواني في العصور القديمة. وتظهر المفردة <فوت> متزامنة في القدم مع أوغاريت في سياق يحدد معناها بشكل صارم على أنه نسيج مصبوغ بالفُوّة [١١].

فكلمة فينيقي قد وردت إغريقياً كتسمية لمجموعة البحَّارة والتجار

والجماعات الذين أمُّوا شواطئ وجزر المتوسط وما بعدها أيضاً. وكانت كتابات هوميروس في البدء حوالي ٩ ق. م، قد أشارت إليهم، ثم كتابات هيرودوتس المؤرخ. إذاً التسمية الأولي لم تأت من المصادر المحلية، أو نقوشها، بل من الكتابات اليونانية. وبما أن القادمين من شواطئ البحر الأحمر وسوريا ولبنان وفلسطين، يحملون حضارة أرقى من حضارة القسم الشمالي الأوروبي للمتوسط، وخاصة في قسمه اليوناني، فإن إحدى نتاجاتهم (الصباغ الأرجواني) استخدم كاسم لهم، حيث ارتبط اسم فينيقي بالأرجوان، وهي تسمية معرفية لأن الأرجوان تعنى Purple باليونانية. وفي النصوص المسينية [نسبة لجزيرة مسينا] لهرميروس فسرت تسميتهم عبر صفة مؤنثة باسم Ponikija، التي تعنى أحمر. وهذه الصفة قد تكون أخذت قيمة إثنية، خاصة أن اسم Ponikija استخدم للدلالة على عشبة، يمكن أن تكون العشبة الفينيقية Herba Phoeniciea التي أشار لها بليني من ناحية ثانية، فإن المعنى اللغوي لكلمة أرجواني في اللاتينية هي Purpureus، وهي كذلك بالفرنسية حيث Purpurin تعنى أحمر قانٍ أرجواني [١٢] و يشير " فيليب حتى " إلى أن " اسم فينيقية المشتق من اليونانية (Phoini) أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها - صناعة الأرجوان - وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم. فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي ١٢٠٠ ق. م مرادفة لكنعان " [١٣].

يناقش " موسكاتي " معنى اسم فينيقي عند المجتهدين في تفسيره، ويري أنه إذا كان Speiser - E قد لاحظ أنه في النصوص الاكادية

العائدة لنوزي أن كيناخُو تعنى أرجوان، وأن الأرجوان كانت مرادفة للكنعاني في حينه، إلا أنه ليس هنالك من أسباب لغوية مقنعة تجعلنا نفترض أن كيناخُو مشتقة من كنعان أو افتراض عكس ذلك [١٤].

ويعلق " شبيزر " على اشتقاق (كنعان) من فينيقية بالقول: " إن أصل واشتقاق (كنعن) ومشتقاته لا علاقة له البتة بالمسألة الحالية " أي باشتقاق اسم (الفينيقيين) [١٥].

أما " يوسف حوراني "، فيري أن: " فينيقس الذي حمل اسمه اللبنانيون، ودعوا بالفينيقيين بالنسبة للإغريق، فهو أحد رؤساء القبائل " [١٦].

أما تسمية (الفينيقيين) فلن نبحث عن مصدرها إلا في القواميس العربية. فالتسمية (الفينيقيين) ترد إلى الجذر العربي (فنق). ويرد معناه في - لسان العرب - لـ " ابن المنظور " (فنق، فنق، الفنق والفناق، والتفنق): كله النعمة في العيش، و(التفنق): التنعم كما يفنق الصبي المترف أهله، وتفنق الرجل أي تنعم، وفنقه غيره تفنيقا، وفانقه بمعنى أي نعمه وعيش مفانق قال عدي بن زيد يصف الجواري بالنعمة زانهن الشفوف ينضحن بالمس وعيش مفانق وحرير و (المفنق) المترف قال لا ذنب لي كنت امرأ مفنقا أغيد نوام الضحى غرونقا الغرونق المنعم، وجارية فنق ومفناق جسيمة حسنة فتية منعمة الأصمعي وامرأة فنق قليلة اللحم وقال شمر لا أعرفه ولكن (الفنق): المنعمة، و(فنقها): نعمها وأنشد قول الأعشى لا تكون درم مرافقها وهي قليلة اللحم وقال بعضهم ناقة فنق إذا كانت فتية لحيمة سمينة وكذلك امرأة فنق إذا كانت عظيمة حسناء قال

رؤبة مضبورة قرواء هرجاب فنق، وقيل في قول رؤبة تنشطته كل هرجاب فنق، قال ابن بري وصواب إنشاده على ما في رجزه تنشطته كل مغلاة الوهق مضبورة قرواء هرجاب فنق مائرة الضبعين مصلاب العنق ويقال امرأة مفناق أيضا قال الأعشى لعوب غريرة مفناق والفنق الفتية الضخمة. قال ابن الأعرابي فنق كأنها فنيق أي جمل فحل والفنيقة المرأة المنعمة أبو عمرو الفنيقة الغرارة وجمعها فنائق وأنشد كأن تحت العلو والفنائق من طوله رجما على شواهق ويقال تفنقت في أمر كذا أي تأنقت، وتنطعت قال وجارية فنق جسيمة حسنة الخلق، وجمل فنق، وفنيق مكرم مودع للفحلة قال أبو زيد هو اسم من أسمائه، والجمع فنق وأفناق، وفي حديث عمير بن أفصي ذكر الفنيق هو الفحل المكرم من الإبل الذي لا يركب، ولا يهان لكرامته عليهم، ومنه حديث الجارود كالفحل الفنيق وفي حديث الحجاج لما حاصر ابن الزبير بمكة ونصب المنجنيق خطارة كالجمل الفنيق والجمع أفناق وفنق وفناق وقد فنق وجارية فنق مفنقة منعمة فنقها أهلها تفنيقا وفناقا والفنيق الفحل المقرم لا يركب لكرامته على أهله والفنيقة وعاء أصغر من الغرارة وقيل هي الغرارة الصغيرة[١٧].

نخلص من كل هذا، أن التسمية (فينيق) تعنى: ترفّه، تنعّم، رغد، الفحل، المكرم، النبيل.

**من أين جاء الفينيقيون؟!:**

في مؤلفه - مكتبة التاريخ - يسجل المؤرخ " هيرودوتس " (484 - 425 ق. م)، ما يلي: " أن الفرس البارعين في معرفة تاريخ بلادهم،

ينسبون إلى الفينيقيين المبادأة في العدوان، بدعوا هم أن هؤلاء جاءوا من سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) إلى شواطئ بحرنا، وسافروا في البحر مسافة طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطناً لهم الآن، وطفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية، بأن ينقلوها إلى أماكن عدّة منها بلدة ارغوس، وهي التي كانت يومئذ أعظم مدن تلك البلاد المعروفة الآن باسم إغريقية. وكانوا بحال وصولهم قد باشروا بيع بضائعهم. وفي خمسة أو ستة أيام نفذت بجملتها. وكانت جماعة من النساء وفي جملتهن ابنه الملك ايناخوس المدعوة (بو) قد أتين للابتياع. قال مؤرخو الفرس، وبينما أولئك النساء يبتعن من البضائع ما يروق لهن، هاج الفينيقيون عليهن بعضهم بعضاً، فتواثبوا وسبوا (بو) وبعض النساء، وفرّوا قاصدين نواحي مصر. ذهب مؤرخو الفرس إلى أن (بو) أحضرت إلى مصر بهذه الصفة، وخالفهمْ في ذلك مؤرخو الفينيقيين، وزعموا أيضاً، أنه بعد ذلك توجه قوم من الأغارقة بسفائنهم إلى مدينة صور من أعمال فينيقية وارسوا في مينائها، ثم اختطفوا أوروبة ابنه الملك " [١٨].

ويعيد " هيرودوتس " التأكيد على موطن الفينيقيون بقوله: " والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) كما يقولون هم أنفسهم. إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر يسمى فلسطين " [١٩].

ويزيد هذه الحقيقة تأكيداً وتأييداً ما رواه الرحالة المؤرخ الجغرافي

اليوناني " سترابون " (Strabo) الذي كتب في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وأوائل القرن الأول الميلادي، في الفصل السادس عشر من كتابه الشهير في - الجغرافيا (٣، ٤) - حيث يتحدث عن الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين فيشير فيه إلى جزيرتين هما: أرادوس Arados وصور Tyros، ويحدثنا أن بهاتين الجزيرتين معابد تشبه معابد الفينيقيين وأن أهل الجزيرتين يؤكدان أن المدن والجزر الفينيقية التي تحمل هذين الاسمين [يشير إلى ميناء إرواد وإلى ميناء صور التي كانت في أصلها جزيرة ربط الفينيقيون بينها وبين الساحل السوري] هي مستوطنات لهم (أي لأهل جزيرتي الخليج) [٢٠]ويؤيد " بليني " هذه الواقعة[٢١].

بل مالنا نذهب في الاستشهاد بعيداً وهذا الخليج لا يزال فيه إلى يومنا هذا ثغراً أسمه (جبيل) على اسم الثغر الآرامي في الشام أن التشابه بين الهياكل الدينية في فينيقيا وفي البلاد العربية على الخليج واشتراك البلدين في عبادة (عشتروت) ووجود بلاد في كل من الجهتين تتفق في أسمائها ليس كله مما يجوز حمله على مجرد الاتفاق الذي لا معنى له، وكون الفينيقيين عرباً جاءوا إلى الشام من جنوب البلاد العربية حقيقة معترف بها ومشهورة من قديم الزمان. وقد ذكر " يستين " مختصر - تزوغ بمبي (١٨: ٣) - : " أن الفينيقيين لما آذانهم الزلازل في أوطانهم وأضرت بهم هجروها وأقاموا أولاً بالقرب من البحيرة الآشورية (الخليج) ثم رحلوا من هناك ونزلوا عند البحر (أي الأبيض) وفي ذلك المحل بنوا مدينة سموها (صيداء) لكثرة الأسماك في ساحلها " [٢٢].

أما المؤرخون العرب فيقولون: " أنهم عبروا مضيق الجزيرة العربية

من مصب الفرات إلى وادي الأردن " [٢٣].

ويذكر " د. زيد بن على عنان " نقلاً عن العلاّمة " فرنسيس لنورمان " إن تقليد الفينيقيين الذي جمعه في نفس مدينة صور المؤرخ هيرودوتس البارع في تحرى منابع الأخبار، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب وتقليد سكان العربية الجنوبية الذي نقله استرابون ثم التقليد الذي كان جارياً ببابل في أوائل النصرانية أيام أنشئ الكتاب الكلداني في الفلاحة النبطية، جميع هذه التقاليد الثلاثة متفق على أن الكلدانيين سكنوا في بادئ الأمر بالقرب من الكوشيين أخواتهم الأصليين عند أرياف البحر الأحمر أو خليج العجم، أي في الجهة التي تسمي اليوم في المصورات الحديثة (القطيف) وأن طريق القوافل ممتدة الآن من ناحية القطيف ومتصلة ببلاد الإحساء، وكامل وادي عطفان إلى حد جبل طويق وفيما وراء ذلك بقليل تميل إلى جهة الشمال الغربي في ناحية الوشم إلى أن تتصل بمدينة (عنيزة)، ومن هناك تأخذ نحو الغرب مارة بجميع جهة (القصيم) لتتصل بطريق الحاج على مساواة (الحنيكية) هذه هي الطريق الذي سلكها الفينيقيون عند هجرتهم من بلاد العرب إلى الشام، وذلك أمر لا يستطاع الارتياب فيه، لأنهم لو سافروا بطريق أخري لما تمكنوا من قطع مسافة الصحراء الواسعة المساحة.

ومن عادة أهل الشرق أن المتأخرين منهم يسلكون نفس الطريق التي اختطها أجدادهم ويمكن التقدير أيضاً بوجه الاحتمال الكلي أن الفينيقيين عند بلوغهم (الحنيكية) مشوا في الطريق التي يسلكها الحجاج كل سنة عند عودتهم من المدينة إلى الشام ولما وصل الكنعانيون [يقصد

الفينيقيون] إلى (الحنيكية) تخلفت منهم قبيلة وأتم الباقون مسيرهم نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي تقاليد العرب القديمة أن قبيلة ثمود أقامت بتلك الجهة ونحتت من الجبال بيوتاً لها. وهي عندهم قبيلة طاغية. لأن الساميين [الجزريين بمفهومنا] ما كفوا مطلقاً عن وصف الكنعانيين والكوشيين بهذه الصفة. فهذه إذن هي الطريق التي يمكن أن يقال أن القبائل الكنعانية [الفينيقية] أنها اتبعتها عند هجرتها من بلادها(٢٤).

بما أن الفينيقيين قد ابتكروا الصباغ الأرجواني فقد اعتقد بعض الباحثين الغربيين، وساندهم في ذلك على الفور السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب بأن هذا الاسم قد أعطى لهم لتخليد صناعة قومية اقترنت بهم.

برغم الإجماع شبة العام على أن الفينيقيين هجرة من جزيرة العرب، فتحديد المؤرخ " هيرودوتس " البارع في تحرى منابع الأخبار أنهم جاءوا من بحر اريتريا [البحر الأحمر]، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب، وإضافة استرابون من وجود مدينتي (أرادوس Arados) و(صور Tyros) على الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين. وأيده في ذلك بليني.

والسؤال الذي أطرحه على السادة مؤرخونا من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي، لماذا لم يثير كلام هؤلاء المؤرخون الثقاة أية رغبة عربية في التدقيق والتحري عن صحة هذه الأخبار!؟ أنني أعتقد أنه جهلاً متعمداً من قبل مؤرخونا، الذين كان همهم إثبات نظريات أسيادهم من مؤرخي الغرب وبحاثة التوراة، فيما يتعلق بجغرافية التوراة.

ووفق قناعاتي الشخصية أنه وجب البحث عن الفينيقيين، في جنوب جزيرة العرب، إذ كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيقة بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعي بـ(الفينيقيين)، والتي تعنى (الشعب الأحمر). قد حافظ على اسمه في جنوب جزيرة العرب، بـ (حِمْير). إننا في الواقع نجد في لفظتي (حِمْيَر وحِمْيَريين) الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي ما زال في أيامنا هذه يعنى في العربية الاحمرار.

وليس مستبعداً أن يكون هؤلاء الحميريين قد أعطوا اسمهم أيضاً للبحر الأحمر الذين كانوا يقصدونه، والذي لابد أنهم قد عبروه أثناء رحلتهم الطويلة إلى الغرب.

وقد كان الحميريون يشكلون في العصر القديم من القرن العشرين قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي أشهر تكتل عرقي وسياسي في جنوبي شبة الجزيرة العربية. وكانوا يحتلون حضرموت الحالية. وكانت أراضيهم تمتد قديماً من عدن حتى مسقط. هذا ويبدو أن مملكة حمير كانت لها علاقات قرابة وثيقة مع مملكة سبأ. ومن المحتمل أن هاتين المملكتين قد شكلتا خلال عصور طويلة مملكة واحدة.

إن لغة الحميريين، التي تدعي أيضاً (العربية الجنوبية القديمة) تبدو وكأنها اللغة الأم للفينيقيين. والكتابات التذكارية التي وجدت في النقوش الحميرية لها بعض الصلات مع الكتابات الفينيقية.

وفي ذلك يقول الأستاذ المستشرق " موريتز " الألماني إلى " أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف الهيروغليفية كان في اليمن، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور، وقد أفضى " موريتز " بأدلته على هذا الرأي وقال: أن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية ثم أن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين، وعنهم أخذ الرومانيون فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، ولهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية " [٢٥].

فقد كان المصريون القدماء يطلقون على مملكة حمير اسم " بلاد البون ". وإذا رجعنا إلى قصة " ماسبيرو " (Maspero) وجدنا أن هناك ألفاظاً مثل (بون) أو (بوانيتي) أو (بويني). وكل هذه الكلمات تعنى أيضاً الفينيقيين كما تعنى بالتالي البونيين أي سكان قرطاجة. زد على ذلك أن الحميريين قد سبقوا الفينيقيين في إقامة علاقات تجارية، قبل استقرارهم على الساحل اللبناني، مع الهند وشبة الجزيرة العربية وأفريقيا [٢٦].

**وهذا يدفعنا إلى مناقشة مسألة بونت، وماذا قصد بها؟!:**

أن أقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن مصر - وادي النيل وصلتها ببلاد بونت هي البعثة التي أمر بإرسالها الملك " ساحورع " من الأسرة الخامسة (حوالي عام ٢٥٥٠ ق. م) إلى تلك البلاد وبقيت مناظرها على بقايا جدران معبد أبو صير. ثم جاء ذكرها مرة ثانية على حجر بالرمو وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات بونت مثل جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة، وذلك إلى جانب

البخور وبعض أنواع العطور التي كانت السبب الرئيسي لقيام بهذه الرحلة. وزادت الصلة بين مصر - وادي النيل وبلاد بونت في الأسرة السادسة إلى حد كبير، وفي إحدى مقابر أسوان يذكر أحد الموظفين أنه ذهب مع سيده إحدى عشرة مرة إلى تلك البلاد.

وفي الأسرة الحادية عشرة (حوالي عام ٢١٠٠ ق. م) بلغ من اهتمام الملوك بالتجارة مع بونت أن الملك " منتوحوتب الرابع " أرسل مدير خزانته واسمه " حننو " لإحضار البخور. فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل عن طريق وادي الحمامات والبحر الأحمر ونجح نجاحاً عظيماً في مهمته. وتكررت الحملات في الأسرة الثانية عشرة وما بعدها. ونري في قصة الملاح الغريق (يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة عشرة) صدي لما يلاقيه البحارة المصريون من مصاعب ومتاعب عند سفرهم إلى بلاد بونت.

وأشهر رحلات المصريين إلى تلك البلاد هي الرحلة التي أمرت بها الملكة " حتشبسوت " في الأسرة الثامنة عشرة (حوالي ١٤٩٠ ق. م) تحت قيادة الوزير " نحسي " ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحري في طيبة. أعدت " حتشبسوت " سفناً كبيرة لهذه الرحلة غادرت طيبة في النيل وربما وصلت إلى البحر الأحمر عن طريق القناة التي كانت مستخدمة في ذلك العهد مخترقة وادي الطميلات. ثم عادت إلى مصر - وادي النيل محملة بخيرات بونت من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات، كما أحضرت إحدى وثلاثين شجرة لزرعها في حديقة معبد أمون بالدير البحري. واهتم المصريون بتدوين تفاصيل هذه الرحلة،

فنري استقبال مندوب الملكة لزعماء بونت والهدايا التي قدمها إليهم، كما رسموا أيضاً القرية الساحلية التي رسوا عندها. وعنوا عناية خاصة برسم جميع أنواع الأسماك التي رأوها في البحر الأحمر.

لم يتفق العلماء على تحديد موقع بلاد " بونت " فترددوا بين أن تكون ساحل أفريقيا الشرقي وبالذات ما يسمي الآن " الصومال "، وبين بلاد العرب، وكل ما قاله العالم " غاردنر " في تعريف " بونت " هذه أنها " الشريط الساحلي جنوب البحر الأحمر " (Eg. Gr., P. 565) أي شريط؟ الغربي أم الشرقي؟ لا جواب [٢٧]المسألة لم تحسم بعد، ولكي نحدد موقع " بونت " يجب أن نعيد قراءة النقوش المصرية ذات العلاقة، وكذلك عبر الاستعانة بعلمي الآثار واللغة:

❖ إن مناظر أهل بونت في معبد ساحورع في الأسرة الخامسة، ومناظرهما علي جدران الدير البحري وبعض مقابر طيبة في الأسرة الثامنة عشرة تبين أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس سكان وادي النيل، ويتفق معهم في أكثر الملامح والملبس.

❖ جميع ما ذكره المصريون كخيرات بونت يمكن الحصول عليها من الشاطئ الآسيوي وأكثره محلي، وبعضه يأتي إليها بوساطة التجارة.

❖ إن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت في الشاطئ الإفريقي بل في بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطره، وكلها على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب.

❖ فحص الأخصائيون رسوم الأشجار المرسومة على جدار

معبد الدير البحري ووجدوا أنها من نوعين أحدهما ذو أوراق كثيفة من نوع Boswellia Carteri ويقول الأستاذ " شُف " (Schoff) أنه من نوع أشجار ظفار ولا يمكن أمن ينبت في الشاطئ الأفريقي. أما النوع الآخر فهو قليل الأوراق بل يكاد يكون عارياً منها، ويشبه أشجار اللبان التي تنبت في بلاد الصومال [٢٨].

❖ إن العلماء أنفسهم قرروا أن النقوش المصرية تسجل وقوع بلاد " بونت " في " طء - نتر ". أي في بلاد الرب، هي كما قال " د. أبو العيون بركات " صفة ملازمة لاسم اليمن جنوب الجزيرة العربية في النقوش المصرية الفرعونية، وأن سبب تلك الصفة الخاصة باليمن ربما يعود إلى أنها أرض البخور واللبان المقدس الذي كان يرتبط بالعقائد والتقرب إلى الآلهة ويتم إحضاره من اليمن [٢٩].

فإذا وضعنا في ذهننا جميع هذه الحقائق، وأردنا أن نحدد مكان بلاد بونت، لوجدنا أن " بلاد بونت " هي بلاد اليمن الجنوبية " [٣٠].

وفي عملية البحث عن موقع " بلاد بونت/ الفونت "، يستعين الباحث " زياد منى " باللغة العربية. فباستشارة القواميس المتخصصة نعرف أن العرب عرفوا (أفلت) و(فليت) كاسمي علم. كما أن " الفلت " و " اللفت " هو الموت. معنى ذلك إن الاسم المصري القديم " فونت " يشير إلى إقليم " حضرموت " في جنوبي جزيرة العرب. حيث يعنى الاسم العربي " بلاد الموت " أو " حاضرة الموت ". وحيث أن البخور كان ينظر له قديماً على أنه غذاء الآلهة، فمن الطبيعي أنه كان ينمو في بلاد الرب، أي في جزيرة العرب[٣١].

وهنالك نقطة أخرى جديرة بالاعتبار. ففي المناظر التي تسجل صلة المصريين بأهل " بونت " مثل رحلة حتشبسوت. ومناظر الجزية في بعض المقابر، نري بعض الأهالي يرتدون ملابسهم التقليدية، ونري فيها شبهاً كبيراً بين الإزار الذي كان البونتيون القدماء يلفونه حول وسطهم، وبين ذلك الإزراء نفسه الذي مازال يستخدمه حتى يومنا هذا بعض رجال القبائل في جنوبي اليمن، وعلى الأخص في مناطق الساحل الجنوبي (٣٢).

وتذكر " سوزان راتييه " أن أهل البلد الوطنيون البونتيون من الجنس الحامي الذين تبدو بشرتهم مصبوغة باللون الأحمر، وربما هم أسلاف الفينيقيين (٣٣).

والتي تمتد حركتهم من الناحية الزمنية إلى مراحل ما قبل التاريخ، حيث كان موطنهم الأصلي في جنوب الجزيرة العربية وفي منطقة اليمن تحديداً، ولنفس الأسباب التي دفعت بالهجرات العروبية إلى مواقع أخرى، هاجر الفينيقيون إلى منطقة الخليج العربي واستوطنوا في / وقرب جزيرة الديلم " البحرين حالياً ". ويعتقد العالم " راكوزين " أن الفينيقيين. الذين سكنوا الساحل الشامي كانوا قد قدموا من البحرين وقد تفرقوا إلى قبائل وتوزعوا في أقسام عديدة من سوريا وأطلق على أحد فروعهم اسم بنط أو بونا(PUNT/ PUNE ) ودعاهم الإغريق بالفينيقيين والبونيون " الفينيقيون " كانوا شعباً تجارياً وقد هاجروا إلى الأماكن التي تزدهر فيها التجارة. كما سكنوا شمال أفريقيا ومنهم القرطاجيون. على أن أهم فرع لهم سكن في بلاد اليمن وحول مضيق باب المندب ثم انتقل إلى السواحل الأفريقية الشرقية واستوطن بلاد الصومال وسيطر على البحر الهندي

والبحر الأحمر، ويعتقد المؤرخون بأن " البونيين " قبيلة من الكنعانيين [الفينيقيين] استوطنت بلاد سوريا منذ أقدم الأزمان وما زالو [٣٤].

إذن " البونيون " ما هم إلا الهجرة العربية التي يرجع أصلها إلى مدينة " بَون " في اليمن، والتي امتدت إلى الجزائر وتونس في صدر التاريخ، وإليهم يرجع بناء مدينة " بون " في الجزائر، المعروفة اليوم بمدينة " عنابة "، وإن تسميتها باسم " بون " ما هو إلا إشارة إلى أصل سكانها وأن هجرتهم من اليمن، مع بنائهم عده مدن أخرى تحت هذا الاسم في أماكن أخرى من العالم.

إن رأيي هذا يلقي دعماً من قبل العالم اليمني " الهمداني " الذي ذكر في سفره الرائع - صفة جزيرة العرب - أن " البون " (بونت بإهمال التاء) في عداد حدود قبيلة حاشد اليمنية الأصلية وذكر عشرات القرى فيها وقد وصفها بأنها: " من أوسع قيعان نجد اليمن..... ". ويعلق على ذلك محقق الكتاب " محمد بن على الأكوع الحوالي " قائلاً: البون: بفتح الباء الموحدة أخره نون، وهو بونان: البون الأعلى والبون الصغير. وقد يقال البون الكبير والبون الصغير، وهو في شمال صنعاء بمرحلة [٣٥].

* * *

## مراجع الفصل الرابع


(١) محمد عطية الأبراشي، **الآداب السامية**، ط ١، دار إحياء الكتب العربية عيسي البابي الحلبي، ١٩٤٦، ص (١٩ - ٢٠).

(٢) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص (٨٥ - ٨٧).

(٣) د. أحمد داود، **تاريخ سورية القديم تصحيح وتحرير**، سلسلة سورية وعودة الزمن العربي، الكتاب الأول، ط ٢، دار الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٧، ص (٢٢٢ - ٢٢٣).

(٤) ميخائيل نسطور، **كنعان - فينيقيا - أرجوان**، ترجمة: فاضل جتكر، ط ١، دراسات قدمس (٦)، دار قدمس للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠١، ص (١٩-٢٠).

(٥) **د. أحمد داود**، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨.

(٦) فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٦٠.

(٧) سبتنيو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٨٩.

(٨) تومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح على سوداح، ط١، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢١٤.

(٩) (طمسن) تومس، من العصر الحجري إلى إسرائيل، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، الفصل الثالث من كتاب الجديد في تاريخ فلسطين، ط١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٧٦.

(١٠) د. أحمد داود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص ١٠٠.

(١١) **ميخائيل نسطور**، مصدر سبق ذكره، ص (٢٣ - ٢٤).

(١٢) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص (١٦٥ - ١٦٦).

(١٣) **د. فيليب حتى**، مصدر سبق ذكره، ص (86 - 87).

(١٤) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص (١٦٥ - ١٦٦).

(١٥) **ميخائيل نسطور**، مصدر سبق ذكره، ص 21.

(١٦) يوسف حوراني، **لبنان في قديم تاريخه**، دار النهار، ١٩٩٢، ص ١٠٦.

(١٧) **يوسف حوراني**، المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(١٨) هيرودوتس، **تاريخ هيرودوتس الشهير**، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي: حبيب أفندي بسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، 1886 - 1887، ص 12. [نسخة مصور].

(١٩) **هيرودوتس**، المصدر نفسه، ص 467.

(٢٠) د. لطفي عبد الوهاب، **العرب في العصور القديمة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ، ص ٦٤.

(٢١) ج. كونتو، **الحضارة الفينيقية**، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٤٢٠.

(٢٢) زيد بن على عنان، **تاريخ حضارة اليمن القديم**، ط١، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٤٢٠.

(٢٣) **ج. كونتو**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢١.

(٢٤) **زيد بن على عنان**، مصدر سبق ذكره، ص (٤٣ - ٤٤).

(٢٥) سعيد عوض باوزير، **الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي**، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٦.

(٢٦) جان مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية**، ترجمة: ربا الخش، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٩٨، ص (٣١ - ٣٢).

(٢٧) د. على فهمي خشيم، **آلهة مصر العربية**، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص، ٢٨١.

(٢٨) د. أحمد فخري، **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ص (١٣٨ - ١٣٩).

(٢٩) د. أبو العيون بركات، بونت بين المصادر المصرية واليمنية القديمة، **اليمن الجديد**، صنعاء، العدد٢، السنة الخامسة عشر، فبراير/ شباط ١٩٨٦.

(٣٠) د. أحمد فخري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٩.

(٣١) د. زياد منى، **جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير**، ط١، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٤، ص ٦٤.

(٣٢) **د. أحمد فخري**، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.

(٣٣) سوزان راتييه، **حتشبسوت الملكة الفرعونية**، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٩٥.

(٣٤) د. جمال الدين الخضور، **عودة التاريخ - الانتربولوجية المعرفية العربية** / دراسة في الأناسة المعرفية العربية التاريخية - اللغوية ووحدتها حتى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، الفصل الثالث، دراسات من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧. (موقع على الإنترنت).

(٣٥) الحسن أبن أحمد أبن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن على الأكوع الحوالي، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٢٠.

* * *